بريد الجمعة

ثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجمعة ٨ يناير ١٩٩٩

يكتبه : عبد الوهاب مطاوع

الخط الجهنمية!

أنا شاب في الثامنة والعشرين من عمري.. أتابع باهتمام بريد الجمعة واستطيع أن اقول ان ما يقرب من ٨٠٪ من همومي بالحياة قد اكتسبتها منه، ولهذا فإني أليها إليك لألتمس منك الرأي والمشورة في مشكلتي التي أقف امامها حائرا الآن فلقد بدأت القصة منذ أكثر من عام حين تعرفت بسيدة متزوجة تكبرني بثماني سنوات ولها ابنة عمرها ١٧ عاما، ثم توثقت صلتي بها سريعا لظروف غياب زوجها المتكرر حيث يشغله عمله للسفر لفترات طويلة، فأصبحنا نتحدث في التليفون لساعات طويلة ونلتقي في الاماكن العامة وتتبادل احاديث الحب والهيام، كما بدأت أزورها في بيتها عند سفر زوجها، وتكررت هذه الزيارات الى ان تخطينا كل الخطوط الحمراء واصبحت علاقتي بها «كاملة».. واستمر الحال على هذا النحو بضعة شهور.. لم يعد لكل منا خلالها شاغل سوى الآخر، وأصبحت أزورها في بيتها كلما سافر زوجها وخلا البيت عليها في غياب ابنتها في مدارسهم وتزورني هي من حين لآخر في بيتي الذي اقيم فيه وحيدا بعد زواج كل إخوتي ورحيل ابي وأمي منذ سنوات.

إلى ان جاء يوم وفوجئت بها تعرض على خلة جهنمية، تضمن لنا كما قالت استمرار علاقتنا بلا متاعب، إلى ابعد مدى، وتجنبنا شكوك الآخرين في اسباب زياراتي المتكررة لها في بيتها او زيارتها لي.. اما هذه الخلة فهي ان ارتبط بابنتها ظاهريا.. وأن تشجعها في على قبول الخطبة من ناحية الخاصة بلا مشاكل لعدة سنوات لأنها مازالت طالبة بالرحلة الثانوية.. وقد تنضج الفتاة خلال هذه السنوات وتتجه مشاعرها أزميل لها في الجامعة مثلا او تكتشف انني لست فتى احلامها لتعتذر عن عدم إتمام الخطبة والزواج فاتحلل من مشروع الارتباط بها وتفوز نحن - وانا وأمها - ببضع سنوات من العلاقة الحميمة بلا متاعب او قلق.. فإذا حدث العكس وتعلقت بي الفتاة ورغبت في استكمال المشوار معي الى نهايته فليس ثمة ما يمنع من ذلك، على ان تتوقف علاقتي برالدتها عند هذا الحد وتقوم بيننا علاقة المصاهرة؛ انني اعرف انك تريد الآن أن تمزق هذه الرسالة وتلقي بها في سلة المهملات وانت تلعنني لكني اناشدك ان تستمر في قراءتها حتى النهاية لعلك تجد في خاتمتها ما يخفف بعض غضبك عني.

لقد ألححت على شريكتي بهذه الخطة.. وفكرت فيها بعض الوقت فلم ار مانعا من تنفيذها، وكلفتها بان تمهد لي الطريق ففعلت، وحدثت ابنتها عني، وشجعتها على الترحيب بي، وانتظرنا مجيء ابيها من رحلة عمل له.. وتقدمت اليه طالبا يد ابنته.. فشرد في البداية في القبول بسبب صغر سن ابنته.. لكن شريكتي نجحت في ازالة تردده، وأيدت فكرة الارتباط المبكر لابنتها بشاب «ممتاز» مثلي لكي يحميها هذا الارتباط من الإغراءات الكثيرة التي تحيط بها نظرا لجمالها المفرط وغياب الأب معظم الأوقات.. وتكرت زوجها بأنه قد خطبها وعمرها ١٧ عاما مثل ابنتها وتزوجها وعمرها ١٨ عاما.. فاقتنع الرجل بذلك وأعلن موافقته بعد ان لمس من ابنته ترحيبها بهذا الارتباط.

وبالفعل تمت قراءة الفاتحة ثم الخطبة وأصبحت اتردد على بيت شريكتي بلا حرج، وازدادت فرص اللقاء بيننا كثيرا وأصبح اتصالنا التليفوني بالسامات امرا عاديا ابدؤه بالحديث مع الفتاة لبعض الوقت ثم تأخذ الأم السماعة وتتحدث معي بحرية وتدعوني للحضور أو تطلب مني مقابلتها لشراء شيء في وسط المدينة إلخ.. ولم الحظ اي شيء من الفتاة في طبيعة علاقتي بأمها.. بل لاحظت على العكس من ذلك انها سعيدة بي وبالدور الذي تجمع بيني وبين امها وأخوتها وسعدت بذلك في البداية وشعرت بأن كل شيء يمضي كما هو مخطط له تماما، لكني بدأت اشعر فجأة بالذنب تجاه هذه الفتاة البريئة التي اشترك انا وأمها في خداعها وبالدتم على ما تورطت فيه معها ومع أمها على السواء، وبدأت من أن يستمر انهاجي بنهاج الخطة وجدت نفسي اشعر بالخوف الشديد مما سيحيق بي من غضب ربي لما فعلت وتدهورت الية من علاقة آثمة مع شريكتي.. وبدات الهواجس تلاحقني وتفسد علي أرقاتي وامتراتي الضيق والاكتئاب «لاحظت انني لم اعد اشعر بالمتعة التي كنت اشعر بها مع والدتها من قبل.. وانما بالألم والضيق والذنب، كما لاحظت ايضا انها قد اصبحت مهمومة معظم اوقاتها ولم تعد سعيدة ومبتهجة دائما معي كما كانت من قبل ونهضت من نومي ذات ليلة مفزوعا وانا اشعر كان احدا يخنقني، فاستغفر عزمي بعد تفكير طويل على امر.. وتوجهت للقاء شريكتي وصارحتها بندمي على ما وصلنا اليه معا فوجئت بها تقول لي انها تشعر هي الأخرى بنفس هذا الندم وتريد ان تفاتحني في ضرورة التوقف عن الاستمرار في الخطأ لانها لم تعد قادرة على مواصلته ولا سعيدة به.. واسترحت كثيرا حين سمعت منها ذلك واتفقنا على وقف اللقاءات الخاصة بيننا والاستمرار في العلاقة العائلية التي تجمعنا بصفتي خطيبا لابنتها وبصفتها اما لخطيبتي والتزمنا بهذا القرار وبدا كل منا يصلي ويستغفر الله كثيرا ويندم على ما بدر منه، واستمرت صلتي العلنية بأسرة خطيبتي كما كانت من قبل واصبحت لدخل بيت الأسرة وقد تحررت لاول مرة من الإحساس بالإثم والخداع، واصبحت شريكتي السابقة تقابلني بود واحترام ولا تتطرق الى اي احاديث خاصة بنا لكن هاجسا جديدا بدأ يؤرقني وهو هل يحل لي الزواج من هذه الفتاة بعد خطئي مع امها أم لا.. وتحرجت من ان اسأل احدا في ذلك خوفا من ان يكتشف الحقيقة.. وتوجهت الى دار الإفتاء بسؤال مكتوب عن جواز ارتباط شاب بفتاة سبق له ان اخطأ مع امها وتوقف عن الخطأ فجاءني الجواب بان الإمام احمد بن حنبل قد حرم مثل هذا الزواج في حين اباحه الائمة الثلاثة الآخرين واخذت بالرأي الاخير ومضيت في مشروع الزواج.. وبدأنا نتحدث عن تحديد موعد قريب لعقد القران.. لكني وجدتني بالرغم من ذلك حائرا ومترددا ولا اعرف ماذا ينبغي لي ان افعل.. وهل ارتبط بهذه الفتاة للنهاية وأتزوجها.. أم ابتعد عن هذه الأسرة كلها خاصة ان امها كانت قد عرضت على حتى بعد توقف العلاقة الخاصة بيننا ان اتصل من زوجها على الطلاق وتتزوجني اذا رغبت انا في ذلك، لكني رفضت هذا الاقتراح بشدة لكيلا اصنع اسرتها وأفرق ابناءها الذين ينعمون بحياة عائلية طبيعية بالرغم من كل ما حدث.

اتني اعرف انني لست موضع احترامك الآن بالمرة لكني اثق انك لن تبخل علي بالرغم من ذلك بالرأي السديد والمشورة ولعله يخفف من حدتك على أن تعلم ان ما وصلت اليه من تقويم هذه السيدة يستحق الاحترام بالفعل فلقد اصبحت تصلي وترتدي الملابس الطويلة والمحتشمة وتغطي شعرها ولا تتحدث مع احد اطلاقا، ونفس الشيء حدث ايضا للفتاة التي كانت على وشك ان تتخذ نفس اتجاه الأم قبل ارتباطي بها فعدلت مسار تفكيرها واصبحت ملتزمة ومحتشمة تماما.

والآن بماذا تنصحني ان افعل.. يا سيدي؟

ولكاتب هذه الرسالة اقول:

لست اريد ان اخوض في نهر القاء العميق لكني اناقش صحة ما اوردته في رسالتك من موقف الائمة الاربعة الاجلاء من خلال هذا الزواج المحاط بالشكوك والريب.. لكني اقول لك فقط انك قد اخطأت في النقل عن فتوى دار الإفتاء فيما قلته عن موقفهم منه فلقد رجعت الى الفتوى رقم ١١٦٤ من فتاوى دار الإفتاء المصرية والصادرة في عهد الإمام الراحل الشيخ جاد الحق علي جاد الحق برحمه الله حين كان مفتيا للجمهورية، فوجدت الفتوى في مسالة مشابهة تشير الى ان ليس ابن حنبل وحده رضي الله عنه هو الذي يحرم مثل هذا الزواج.. وإنما يحرمه ايضا فقهاء المذهب الحنفي والشوفي والاوزاعي، حيث يفتون لارتكاب الخطيئة مع الام ما يحرم بالمصاهرة ويقولون ان من ارتكبها مع امرأة فقد حرمت عليه امها وابنتها وجدتها وحرمت هي على ابيه واجداده وان علوا وعلى ابنائه وان نزلوا، في حين اجازه فقهاء الشافعية والمالكية على كراهته اعتمادا على انه لا يعتبر في التحريم بالمصاهرة الا النكاح الحلال الذي لا شبهة فيه، فإذا لم يكن كذلك لم تقع به حرمة المصاهرة ولكن يكره مثل هذا النكاح ولا يندب اليه اي لا يكون مفضلا، وبغض النظر عن اختلاف الأئمة الاجلاء في هذا الامر وكل مصيب كما يقولون فإني اسالك عما يغريك بفتاة صغيرة لم تبلغ الثامنة عشرة من عمرها لكي تسعى للارتباط بها وقد اخطأت من قبل مع امها.. ولم تكن خطيبتك لها من البداية سوى جزء من خطة جهنمية شائنة للنعمية على علاقتك الآثمة بوالدتها؟

ولماذا تصر على مخالفة احكام العقل والأخلاق باستمرار وجودك في حياة هذه الفتاة الصغيرة والظروف المعقدة المحيطة بها قد تتذر باحتمال تجدد العلاقة بينك وبين امها في اي مرحلة من العمر، بدليل عرضها عليك حتى بعد خطبتك لابنتها وتوقف العلاقة الآثمة بينكما ان تحصل على الطلاق من زوجها وتتزوجك؟

الا يعني ذلك ان القصة المؤسفة لم تنته كل فصولها بعد.. وان استمرار وجودك بالقرب من هذه السيدة قد يحمل لك نذر تجددها في اي لحظة؟

إن الإنسان ضعيف مطبعه امام الإغراءات.. والمثيرات ونداءات الغريزة والمغامرة.. وسوابقك الأخلاقية لا توحي بان استشعارك للندم أو استشعار شريكتك له قد يكون كافيا الآن أو في المستقبل القريب لحماية كل منكما من ضعفه تجاه الآخر التي ما لا نهاية..

فلماذا اذن تضع نفسك وتضع هذه السيدة موضع اختبار قد يدوم طوال ارتباطك بابنتها؟ ولماذا لا تتجو بنفسك من حقل الألغام الذي دخلته بقدميك فتجنبي هذه الفتاة الصغيرة مما ترشحها له انت وامها من عذاب كعذاب الأساطير الإغريقية حين تكتشف ذات يوم ما كان من امركما معا.. أو ما سوف يستجد منه في قادم الأيام؟

ولماذا ايضا لا تعين هذه السيدة على نفسها بالخروج نهائيا من حياتها، وكفاك وكفاها الما مما كان من امركما معا.. وما كان من امركما مع هذه الفتاة التي ارتضت لها امها لا سامحها الله ان تتخذها سفارا خادعا لعلاقتها هذا الاستغلال الدنيء واللعب بعواطفها الغضة بغير شفقة لحساب أهوائها ونزواتها؟ يا إلهي! ان من الحيوانات الدنيئة من قد لا ترضى لفلذات اكبادها بهذا الاستغلال الذي فكرت في ان ترضي به بعض البشر لفلذات قلوبهم!

إنني لن أحدثك عن الحلال والحرام لانك تعرف جيدا كل ما يمكن ان يقال في ذلك ولكني سأقول لك فقط انه حتى في الخطأ، من الأخطاء ما قد يخفف من بعض وزره انه قد يراعي بعض القوانين الأخلاقية دون بعضها فلا يضاعف مرتكبه من جرمه باستغلال الآخرين اسوا استغلال ولا يقترف في خطئه بالاذى ممن يامنون اليه ويعتمدون عليه ويخلون في اخلاص نياته تجاههم، ومن الخطأ كذلك مالا يراعي فيه من ... اثنين اخلاقي او جرمة اشر أو شفاعة لصلة رحم او قرابة، فكانما لا يرى فيما يفعل الا نفسه ورغباته واهواءه مهما ترتب عليها من إيلام وإيذاء للآخرين. وخطأ هذه السيدة في حق ابنتها بوضعك في طريقها لكي تكون ستارا شائنا لعلاقتها الآثمة بك هو من هذا النوع الأخير الذي يضيف الى جرم الخطيئة خسة خداع اقرب الناس اليها واحقهم عليها بالحماية من مثل هذا الخداع ولو ضحت هي في سبيل ذلك بكل اهداف الحياة.

ولقد قلت مرارا ان الضمير الأخلاقي قد لا يمنعنا في بعض الأحيان من ارتكاب الخطايا.. لكنه يحرمنا بكل تاكيد من الاستمتاع بها، وما حدث لك ولهذه السيدة بعد تورطكما في خداع هذه الأبنة.. ونجاح خطتكما الجهنمية في إشقاء الصيغة الملائمة على وجودك في حياة هذه الاسرة يؤكد ذلك، غير انني اصارحك بانني لا اطمئن كثيرا الى الاعتماد على هذا الوازع الأخلاقي في علاقتك بهذه السيدة .. اذا استمرت صلتك بابنتها وتطورت الى الزواج.. كما انني لا ارشح مثل هذا الزواج الذي لاحسب الا انك تقدمت الآن الذرائع للنكوص عنه، للنجاح والاستمرار بلا مشاكل محزنة.. واسبابي لذلك هي انك حتى ولو نجحت في الاستمرار في مقاومة نداء تجدد العلاقة بينك وبين هذه السيدة، فإنك لن تنجو غالبا من مؤثرات هذه العلاقة السابقة عليك وروابسها الأخلاقية في اعماقك في علاقتك بهذه الفتاة في المستقبل..

فلاشك انك رغم «اعتزازك» بما تقول انك قد نجحت فيه من «تقويم» هذه السيدة، وتعديل مسار تفكير ابنتها التي كانت تمضي على درب امها لولا جهدك المشكور في تقويمها! اقول انك لاشك لا تخلو في اعماقك من بعض عدم الاطمئنان الى نوعية القيم الأخلاقية السائدة في الوسط العائلي لهذه السيدة وابنتها، وانك لن تخلو فيما تصور من بعض الهواجس والظنون في ان تكون لهذه القيم المتساهلة بعض الأثر على التزامها وسلوكها في المستقبل.. وحتى ولو كانت فتاة طيبة ولا غبار على اخلاقياتها فإنك قد تظلمها بهواجسك وشكوكك ورواسب علاقتك السابقة بأمها.. وتساؤلاتك عما اذا كان لسوابق أمها معك من اثر على نظرتها للحياة واخلاقياتها في المستقبل.. فلماذا لا تحميها من كل ذلك.. وتدعها لشانها.. ولها من جمالها وصغر سنها ما قد يرشحها للارتباط بمن لا ينطوي لها على شيء من مثل هذه الهواجس والظنون؟ ولماذا لا تبتعد انت عن الهوتة التي تضطرم فيها نيران الشكوك؟.. واحتمالات تجدد العلاقة الآثمة مع الأم.. واحتمال اطلاع الابنة على علاقتك بأمها.. واحتمال انفجار الموقف كله بفضيحة مدوية وانهيار اسرة بأكملها وتبدد حياة جديدة ونظيفة وخالية من كل الشوائب مع فتاة لا تربطك باسرتها مثل هذه الروابط المركبة والمعقدة.

انني لا اظن ان هذه الفتاة سوف تخسر الشيء الكثير بفقدها لك.. بل لعلي اقول انها ستريح نفسها وسعادتها في المستقبل اذا نجت من الارتباط بك ومن هذا الزواج الذي يحمل في ثناياه من عوامل الفشل والفلاقل والاضطراب أكثر مما يحمل من عوامل النجاح والاستقرار والامان.

ولقد ركزت حديثي كله على هذه الفتاة باعتبارها الضحية الأولى للخداع البشع والخطط الجهنمية الآثمة من جانب امها.. وجانبك، اما الضحية الاخرى لهذه القصة وهي والدها فحسابكما، مع خالقكما، لكن ابسط ما تستطيع له الآن اذا كان مازال لصوت الضمير من اثر عليك هو ان تختفي من حياة ابنته واسرته وعائلته.. عسى ان يرشحك ذلك مع صدق الندم وصحة العزم للتطهر مما جنيته عليه من قبل..

والسلام..